(١٢)
إلا هذا الغلبان المظلوم*

نحن فى طائرة شركة مصر للطيران، وقد أكرمونا وأطعمونا، وأعلنوا - لكى يشغلونا وننسى أننا معلقون بين السماء والأرض - أن لديهم أشياء طريفة جميلة يبيعوننا إياها بسعر مخفض، وأن الموظفين سيمرون بها علينا بعد قليل، ثم أضافوا. إن الأثمان تقبل بكل عملة على وجه الأرض إلا الجنيه المصرى، فقلت فى نفسى: أيها الغلبان المسكين، حتى نحن أهلك نظلمك. ما ذنبك والله حتى نخرجك من عملات الدنيا المحترمة ونحن - دون شك - سبب بلائك وسوء حظك؟! ولو كنا قوما منتجين أعزاء عاملين لارتفع شأنك، وكنت على نفس مستوى العملات المتميزة التى يقبلون بها أسعار ما يبيعون، وما ذنبك والله حتى يساوى ثمانية منك دينارا كويتيا، وأنت والله فى بلدك أعز من الدينار الكويتى فى بلده؟ فأنا ومعى جنيه واحد فى مصر أغنى وأقدر على التصرف منى فى الكويت ومعى دينار كويتى لا يكفى لمجرد الإفطار.

وقد أخذت ذات مرة تكسيا من مطار الرياض إلى الفندق فدفعت خمسين ريالا سعوديا، وهذا هو السعر الرسمى الذى حددته الحكومة لهذا المشوار، أما من مطار القاهرة إلى الفندق فأنت تركب ليموزين محترمة وتدفع اثنى عشر جنيها، تستطيع أن تضيف إليها جنيها بقشيشا لو شئت، أى أن قوة الجنيه المصرى هنا ثلاثة أضعاف قوة الريال السعودى هناك، بل إن الجنيه المصرى هنا فى مصر أقوى من الدولار فى واشنطون، فأنت تستطيع أن تتناول بالجنيه هنا إفطارا محترما، أما هناك فإن الدولار يشترى لك الخبز يادوبك. وفى مدريد يقولون لك إن البيزيتا

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٢ مارس ١٩٨٩م .

تساوى القرش المصرى، وهذا كلام غير صحيح، فإن الجريدة هنا بعشرين قرشا، وهى فى مدريد بستين أو سبعين بيزيتا، وأخذت مع صديق فنجانا من الشاى فى مقهى فدفعت أربعمائة بيزيتا، ونفس فنجان من الشاى فى مصر لا يساوى ربع هذا الثمن فى أغلى المقاهى والفنادق.

ثم إننا عندما أصدرنا هذا الجنيه المصرى أصدرناه ليتعامل الناس به فى مصر، وكان علينا نحن أن نجتهد ونعمل ونتقن حتى نخرج صناعات تباع بعملات أجنبية كثيرة، فترتفع قيمة الجنيه المصرى من تلقاء نفسها، ولكننا أولا كسالى ولا نعمل بما فيه الكفاية، ثم إن أحدا لم يعملنا الاتقان، فقد رأيت فى التليفزيون بنات يصنعن بولوفرات، والواحدة منهن تصنع تسع قطع فى اليوم، ولكنها صناعة رديئة، وإذا أتت اشتريت واحدا وجدت أن كما أطول من كم، وعرض البلولوفر من أعلى أوسع من عرضه من أسفل. والنتيجة أن الناس إذا ذهبت تشترى من محل كبير تحاشت هذا النوع من الملابس، وثمنها ينخفض نتيجة لذلك، والسبب إننا لم نعرف أن الإتقان له قيمة، والقيمة هنا هى بدل الوقت الذى يضيع فى التأنى وإتقان القياس والمراجعة مرة بعد أخرى، ولكن العاملة لا تعرف ذلك، فهى تصنع القطع التسع، ولو استطاعت أن تصنع عشر قطع لصنعت، ومنظرها نفسه ليس فيه إتقان ولا ذوق، فهى مبهدلة، و(عرة) وأنت إذا رأيتها لم تنتظر من يدها شيئا ذا قيمة، والمسئولية بعد ذلك ليست مسئوليتها، بل مسئولية تجار الجملة الذين يشترون منها، فلو كانوا يتسلمون القطع واحدة واحدة ويفحصونها ويراجعون مقاييسها ويردون مالا يعجبهم منها لفهمت هذه البنت أن هناك فرقا بين الإتقان و(الكروتة) ولعرفت أن خمس قطع متقنة أجدى عليها من عشر غير متقنات. وهنا - فى هذا المثل الصغير - نضع أصابعنا على أسباب نكبة الجنيه المصرى، فنحن فى الحقيقة السبب. وأكثر من ذلك أن الكثيرين منا لا يبالون بأن يهبطوا بقيمة الجنيه المصرى فى سبيل كسب شخصى،

وأعرف رجلا يملك شقة معنا فى البيت وهو يعرضها للإيجار، ويطلب هذا الإيجار بالدولار، والذى أعرفه انه ليس بتاجر أو صانع، أى أنه ليس بحاجة إلى الدولار بالذات لكى يستورد بضاعة أو مواد خاما لازمة لصناعته، ولكنه الطمع، فهو إذا طلب ألف دولار مثلا استطاع أن يبيعها بألفين وخمسمائة جنيه، وطبيعى أن أحدا لا يريد الإيجار منه بالدولار، لأنه إذا كان طماعا فإن الآخرين أيضا طماعون، وبين أقدام أولئك الطماعين يضيع الجنيه، فلا أحد يريد أن يتعامل به، وهذه فى الحقيقة مصيبة قومية، ونحن فى الحقيقة لا نستحق هذا الجنيه، لأن الجنيه لا ذنب له، ولكن الذنب ذنبنا، ولو كان الدولار هو عملتنا أساسا لرغناه فى التراب، هذا يذكرنى برجل كان يسكن جوارنا أيام سكنانا فى شبرا، وكانت له زوجة هى آية فى الكمال والجمال والإقبال على العمل، وقد أنجبت له أربعة أولاد: بنتا واحدة وثلاثة أولاد. وهى تربيهم أحسن تربية، ولكن هذا الزوج لا يكف عن أذاها وإطلاق لسانه عليها، وهى تشكو منه وتبكى، فقلت لها: لا عليك يا أم فلانة حسبك أولادك فهم جواهر، واصرفى نظرا عن هذا الرجل الطويل اللسان، فهو لن يكف عما هو فيه قط، ودعى الزوجية قائمة لصالح الأولاد، وزوجك هذا لم ينصلح حاله أبدا، فهو هكذا (عرة) وكل شىء يصل إلى يده تهبط قيمته، وقد سمعته يشتمك فتعجبت وسالت الله لك الرحمة.

□□□

ولا أريد أن أقسو على شعبنا وأقول إنه سبب تدهور قيمة الجنيه، أو يشبه هذا الزوج الذى تحدث عنه، لأن شعبنا فى الحقيقة مجتهد وشغال وذكى وقادر على الإنتاج الجيد، ولكن أحدا لا يعلمه كيف يعمل وماذا يعمل، وأظن أن هذا هو العمل الرئيسى الذى ننتظره من الدولة. فنحن لا نطالب الدولة بأن تعمل، بل نطالبها بأن تعلم الناس كيف يعملون، وماذا يعملون، ثم تعاونهم فى تسويق ما يصنعون. وأظن أننا عندما أنشأنا وزارة الصناعة لم نقصد إلى أن نجعل وزير الصناعة ورئيسا لمجلس إدارة

كذا شركة، فليست رياسة مجالس إدارة الشركات عمل الوزير، وإنما عمل الوزير أن يكون معلما ومرشدا وموجها وفاتحا للطريق، فإذا كانت هناك شركة صناعات معدنية فإن عمل الوزارة هو أن تكون الموجهة لهذا الشركة أو الناصحة لها إذا طلبت النصيحة، وأهم من ذلك فإن عليها أن تيسر شئون التصدير، وتدل على الأسواق الخارجية، وليس من الضرورى أن يكون للوزارة مندوب فى كل بلد، كما هو الحال اليوم، فهذا الموظف لا يزيد على أن يكون عضوا فى سفارة لا يتصرف إلا بإذن السفير أو بأمره، ولكن الأهم أن تكون فى الوزارة إدارات علمية فنية، يستشيرها الناس، ويحصلون على المعلومات منها، أى أن إدارات الوزارة ينبغى أن تكون معاهد، ولابد لها أن تعاون الصناع على التصدير، فلا ينتهى الأمر بالصناع إلى أن يقف بلا حول أمام قوانين الجمارك ونظمها ورجالها، بل أنا أظن أن موظفى الجمارك فى غير مصر يتقاسمون الشركات، فهناك موظف متخصص بشئون كل شركة يعرف كل شئون تصديرها، لأنه هو المسئول عن ذلك، ودون أن يكون له من الشركة على هذا أجر أو مكافأة، لأن الدولة أداة تنشيط وتيسير، وليس من عمل الحكومة أن تكون محاسبا ورقيبا على الشركات فحسب، فلا شىء يعطل الشركات مثل المحاسبين والرقباء، ويكفى أن يعرف الموظف أنه محاسب أو رقيب لكى يصبح عقبة، والمصريون بالذات إذا أصبح الواحد منهم محاسبا أو رقيبا أصبح من تلقاء نفسه خازوقا، لأنه يظن أنه ما دام قد أصبح محاسبا فقد أصبح رئيسا، وهو يحسب أن الرقيب ينبغى أن يكون ثقيل الدم ذا غلاسة وثقل ظل، وقد اشتركت فى التصحيح فى الثانوية العامة مرة واحدة، ثم قلت توبة لأننى وجدت المراجع ينظر فى الورق الذى صححته ويحاسبنى كأننى أنا الطالب، وأظن أن هذا مركب نقص يظهر فى هذه الحالات، وكان عندنا ذات مرة ناظر مدرسة كان يقف وراء باب شرفة غرفته ويرقبنا نحن المدرسين ونحن داخلون كأنه يراقب متسللين وكنت أكره منه ذلك، فقررت أن أكون فى المدرسة قبله، وعندما دق جرس بداية الدراسة

خرجت أسير متمهلا نحو الفصل. وهنا وجدت سعادة البيه الناظر مقبلا من الناحية الأخرى وهو يقول بلهفة: فلان.. ألا تعرفون لماذا لم يأت؟ فقلت له: ها أنذا فى خدمتك يا سعادة البيه! فقال وقد خاب ظنه وكيف لم أرك داخلا إذن؟ قلت: المهم يا سيدى أننى هنا. وها أنا فى طريقى إلى الفصل، ألا يكفى هذا؟

□□□

ولقد طالما سمعت الناس عندنا يتحدثون عن كوريا وتايوان ويبدون الإعجاب بهما كأنهما صنعتا شيئا من وراء العقول.

وأقول الحق إننى لا أرضى أن نكون مثل هذه أو تلك، وما دمنا نريد أن ننهض فلننهض بصورة محترمة، أما أن نصنع أقلاما لا تكتب، ومحركات لا تتحرك، ومسجلات لا تسجل، فأمور لا نريدها. ومادمنا نريد أن نقلد فلنقلد شيئا (عدلا) فلنقلد المخترعين أنفسهم، ولنتعلم على أيديهم، أما أن نقلد المقلدين ونسرق اللصوص فأمور لا معنى لها.

ولكننى لا أرى أن نقلد أصلا: لا (العدل) ولا الخيبان، لأن العمل ينبغى أن يصدر من داخل نفوسنا.. من ضميرنا، وينبغى أن يقوم على علمنا، ونحن إذا أردنا أن نتعلم تعلمنا، وما رأيت فى الدنيا شيئا يصنعه إنسان إلا استطاع غيره أن يصنع مثله إذا أراد، وهؤلاء الأوروبيون يسبقوننا لأنهم أهل جد وعلم، فإذا علموا شيئا أقبلوا يعلمونه، ولهم فى ذلك صبر ودقة ومثابرة، وإذا أنت شهدت الماني يعمل تعجبت من انصرافه التام إلى ما يعمل، ودقته البالغة فى كل شىء، وهو مع ذلك لا يتكلف الدقة أو يشكو منها، ويسجل كل شىء يعمله فى دفتر، ولا يكتفى بالقياس أو الوزن مرة واحدة قط، وهو لهذا إذا سلمك شيئا صنعه قرأت فى عينيه الثقة فى النفس، واللذة فى العمل، وقد تعلمت هذا منهم، وأصبحت اليوم أجد لذة فى العمل معهم، ولهذا فأنا يعز على الجنيه المصرى، ولا أرضى قط أن أبيعه بأقل من الثمن الذى أقدره له، فهو –

رغم كل شيء - يساوى فى نظرى أربعة دولارات أمريكية وجنيها إنجليزيا وبنسا، وهكذا. وإذا اضطرتنى الظروف فى يوم من الأيام أن أبيع الجنيه بأقل من ثمنه فأكون أنا الذى أرخصت نفسى، وأذكر اننى أشتركت مرة فى قاعة بحث فى جامعة تونجن وكانوا يتكلمون عن العلاقات بين إنجلترا وروسيا فى أواخر القرن الماضى. وتكلم أستاذ عن العلاقات بين تركيا وإنجلترا وعلاقة ذلك بالعلاقات مع روسيا، ولم يعجبنى كلامه وجرت بينى وبينه مناقشة ويبدو اننى أعجبته فطالت المناقشة بينى وبينه. وانتهى الأمر بالاتفاق على أن ندرس هذه النقطة معا، وكنت أبكر جدا فى الحضور واستأخر فى القراءة فى ا لمكتبة، فسبقته فى الجمع والترتيب، فقال لى: أظن أن الأفضل أن أدع لك هذا الموضوع برمته، وانفردت به فعلا، وأعتقد أننى أحسنت لأننى أخذت مذهب الألمان وطريقتهم فى البحث، وزدت عليهم فى ذلك، لأن العمل طريقة وصبر وحب وعشق للغاية، فإذا اجتمع هذا لك فثق أنك ستكون دائما فى المقدمة دون أن تقلد أحدا.

وفى أثناء مرورى بمصنع أجهزة اليكترونية فى الإسماعيلية - وهو مصنع تجميع - رأيت شابة تجمع القطع وتربط بعضها ببعض وهى تمزح مع زميلة لها، فقلت لها: يا ابنتى ليتك أعطيت عملك التفاتا أكثر مما أرى، فإنك إذا جمعت هذه القطع بعناية زادت قيمتها المالية، واستطعنا أن ننافس بها فى السوق المحلية على الأقل، وهذا الاستخفاف فى العمل استخفاف بكل شيء فى مصر، ونحن فى الحقيقة فى معركة، معركة إتقان ودقة، وأنت ترين السوق حافلة بأجهزة تجيئنا من بلاد وراءنا بكثير، ولكن العمل يجرى فيها على قواعد رأسمالية، وأى عامل يعمل أقل من المطلوب يعاقب أو يفصل، ولو كنا هناك لكنت وأمثالك من المفصولات، ولكنك ترين إننا فى بلد كريم طيب لا يقسو ولا يشتد، ولهذا فأنت تستهينين، وأنا لا أرى أنك تستحقين راتبك، ولكنهم لو أنقصوك قرشا قامت القيامة، وقالوا إننا نظلمك، والحق أننا فى حالة مثل حالتك

إما أن نظلمك وإما أن نظم مصر كلها، والعمل الذى تقومين به ليس بالعسير، ولكنه يحتاج إلى دقة، وهذه الدقة فى الحقيقة قيمة مالية، فما الذى يصيبك إذا أنت ركزت اهتمامك فى العمل وأخرجت لنا شيئا يسعد به من يشتريه، بدلا من أن تنسد نفسه، ويقسم ألا يشترى بعد ذلك شيئا من صناعة مصرية؟ ونظرت إلىّ البنت طويلا وقالت: لم يقل لى أحد شيئا من ذلك قبل الآن! قلت: وهذا هو الخطأ، لأننا ننسى أن عمل أمثالك جزء من رأس مالنا، وأنت لاترين فيه إلا مصدر رزق لك. ولا تعارض بين الاثنين إذا أدرك رؤساؤك ذلك، وأقبل على حديثنا مراقب أو رئيس من رؤساء القاعة، فقال: هذه من أحسن عاملاتنا، وهى أسرع من فى هذه القاعة! قلت ياسيدى، انظر فيما تعمل، انظر كيف ركبت هذا المسمار فأخذ الجهاز وأدار المسمار وقال: آه.. بسيطة! ألم أقل لك يا فلانة إن أهم شىء فى عملنا هو الدقة؟ خذى بالك من عملك أرجوك! ثم نظر إلىّ وقال: خلاص يا سيدى، ستكون أكثر إتقانا لعملها! قلت: إذن فلنراجع هذه القطع التى مرت من تحت يدها، فقال: هى ستراجعها. قلت ياسيدى إن المراجعة ليست عملها. إنها تعمل، وأنت المراجع، فنظر إلىّ وقال: وماذا ترى؟ نفصلها؟ قلت: لا ياسيدى. بل نفصلك أنت، فأنت فيما أرى مستهين بالعمل، وإذا شئت أن تأتى برئيسك ليراجع كيف تعمل عاملاتك أتينا به ليبدى فيه رأيه، وأنا يا أخى لست متفرجا بل أنا رقيب، وهذا الكلام لا يعجبنى، فقال بكل استخفاف: يا سيدى افعل ما بدا لك، فأنا لا أخشى إلا الذى خلقنى!

قلت: آه، دخلت فى العلالى! ليتك يا سيدى تخشى رئيسك أو تخاف القانون، ومع ذلك فسنرى أيها العزيز إن كان من الممكن أن تخشى شيئا آخر قبل الله سبحانه وتعالى..

وكنا مدعوين للغداء مع مدير المصنع، وهو مهندس كبير، فحكيت له الحكاية كلها قبل الطعام، ففكر الرجل طويلا ثم قال: وماذا أفعل

يا سيدى فى نظام العمل الذى نسير عليه هنا؟ كيف أعرف مستوى الإتقان عند كل عامل، وهم كما ترى كالرمل، وكل الذى أراه أنا علب بداخلها السجلات، ومن المستحيل علىّ أن أفتحها علبة علبة! قالت: وما رأيك يا سيدى فى أن تطبق فى هذا المصنع نظام صناعة الأكواخ؟ قال: وما هى صناعة الأكواخ تلك؟ قلت يا أخى إنها الصناعة التى يطلقونها على صناعة الساعة فى سويسرا مثلا، وعنها نقلته اليابان وبلاد شرق آسيا، وخلاصتها أن الساعة مثلا تمر فى عشر مراحل، وبدلا من أن تقسم الساعات على الأكواخ أى البيوت، فيقوم كل بيت بصناعة كذا ساعة، تقسم صناعة الساعة الواحدة على عشرة بيوت، فيتسلم البيت الأول إطار الساعة المعدنى ومعه قرص معدنى فى وسطه ثقب ومعه مسمار صغير فى رأسه أربعة ثقوب فى غاية الصغر، ويقوم هذا البيت بتثبيت القرص فى الإطار بالمسمار، ثم يضع أربعة مسامير صغيرة فى الثقوب الأربعة فى رأس المسمار الأوسط، ويثبت هذه كلها تماما ويسلمها إلى البيت المجاور الذى يتلقى ثلاث قطع صغيرة من قطع الساعة ليثبتها، وهذا البيت إذا وجد خللا فيما يسلم له من الساعات رفض الاستلام، ومن هنا فإن البيت الأول يحرص أشد الحرص على ألا يخرج من يده شيء ألا وهو بالغ الإتقان، وهكذا مع البيوت التالية. فالصناعة تسير أفقية لا رأسية، والعامل هناك يخشى جاره قبل أن يقول بالفم المليان إنه لا يخشى إلا الذى خلقه، وعندما تصل الساعة إلى البيت العاشر تكون قد وصلنا إلى المراجعة النهائية، هذا البيت بيت إشراف ورياسة، والذين يعملون فيه رؤساء يعرفون مَنْ صنع ماذا، وهم لا يحيلون إلى تحقيق أو يقدمون مذكرات، بل يقررون أن البيت الفلانى أخطأ فى كذا، إذا كان قد أخطأ، ونادرا ما يكون قد أخطأ. لأن الناس هناك أعقل وأذكى وأحرص من أن (يكروتوا) وهم لهذا لا يقسمون بالذى خلقهم، ويعلنون مقامهم الرفيع على الناس أجمعين، بل يتقنون العمل فحسب وهم سكوت، وإذا لاحظ أحدهم شيئا على ما يصل إليه من القطع اتصل بجاره ونبهه وأعاد إليه القطع فى

هدوء، ونادرا ما تقع بينهم مشادات، ونادرا أيضا ما يعمل أحد منهم وهو يرغى كما تعمل عاملتنا، وإذا نحن لم نقل بالضرورة عن هذا الإتقان هو السبب الرئيسى فى ثبات قيمة الفرنك السويسرى فلابد أن نسلم بأن له أثرا حاسما فى ذلك، والجنيه المصرى غلبان، لأننا كلنا متفرجون لا نزال تجرى على ألسنتنا العبارات الضخمة، إننا - فعلا - لا نخشى شيئا، ولا الذى خلقنا، وهل معقول أن يهبط الجنيه إلى هذا المستوى الحزين إذا كنا نحن نخشى الله سبحانه حقا؟